مولد رسول الله ورضاعه

وأحواله إلى البعثة

(١) ولد رسول الله ﷺ عام الفيل ، بينه وبين الفيل خمسون ليلة ، والمشهور أن ميلاده كان لاثنتى عشرة خلت من ربيع الأول ، وعليه عمل أهل مكة قديماً وحديثاً فى زيارتهم موضع مولده فى ذلك الوقت من كل سنة ، وذلك بالدار التى فى زقاق المولد من شعب بنى هاشم بمكة ، وكانت لرسول الله ، فوهبها لعقيل بن أبى طالب ، فلم تزل بيده حتى توفى ، فباعها ولده من محمد بن يوسف أخى الحجاج ، ولما حجت الخيزران أم هرون الرشيد ، جعلت البيت الذى ولد فيه ، مسجداً للصلاة ، ومازال كذلك إلى اليوم .

وكانت قريش تؤرخ السنين بموت قصى لجلالة قصى ، فلما كان عام الفيل أرخت به لاشتهار ذلك العام ، فكأن تأريخهم حينئذ من مولد الرسول

وقد اتفق فى سنة الميلاد أن حدثت حوادث من أهمها (١) كثرة انقضاض الكواكب ، حتى أنكرت قريش هذا الحادث ، وقالوا ماهذا إلا لقيام الساعة ، (٢) زلزلت الأرض فى جهات شتى زلزالا شديداً سقطت به الأصنام التى حول الكعبة أو فوقها من مواضعها ، وتهدمت كنائس وبيع ، وارتجس ايوان كسرى ، وسقط من شرفاته أربع عشرة ، وخمدت نار فارس ولم تك خمدت قبل ذلك بألف سنة ، وغيض ماء بحيرة ساوة ، على اتساعها ، وصارت يابسة كأن لم يك بها

شيء من ماء ، حتى بنيت موضعها مدينة ساوة الباقية إلى الآن ، وان خربها كفار التتر سنة ٦١٧ هـ

وقد اتخذ أهل القصص النبوية والسير والموالد هذه الحوادث وأمثالها تقدمة وارهاصا أو معجزات للرسول ، وكذلك مافعل الله بأصحاب الفيل ، ويقولون أن زمان النبوة صالح للخوارق ؛

ويصح أن يكون كل هذا حدث ولا علاقة له أصلا بميلاد النبي ، ولا بارساله إلى الخلق ، فانقضاض الكواكب مايزال جاريا يتمثل فى الشهب التى تعلل بأنها أجرام صغيرة جدا تدور حول الشمس ، وتدخل فى الهواء المحيط بالارض فتشتعل من احتكاكها فيه ، وكالحجارة الضالة التى تقع من الجو على سطح الارض ، وقد شوهد أنه يظهر فى الجو قبل سقوطها كرات نيرة تفرقع بشدة ، وعلى أثر ذلك تقع هذه الحجارة

وقد ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٣٢٣ هـ أنه فى الليلة الثانية عشرة من ذي القعدة انقضت الكواكب من أول الليل إلى آخره انقضاضا دائما مسرفا جدا لم يعهد مثله ـ فهل كانت ارهاصا لاحد ؟ وكتب مدير مرصد تورنتو بكندا أنه شاهد وقوع النيازك (الشهب) فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٠٠ ، وكانت كثيرة جدا حتى امتلأ بها الجو وبقيت تتساقط إلى الصباح وذعر الناس منها وظنوا انه دنا انقضاء العالم ـ كما ظنت قريش ـ فما أصل ذلك وما سرّه ؟ وهل كانت لميلاد أحد

الحق ان انقضاض الشهب أمر دورى ، له أزمنته ، وله مواعيد يعود فيها ، وأسباب يرجع اليها ، وقد أصبح علماء الفلك ينبئون بها قبل سقوطها ، كما ينبئون بخسوف القمر وكسوف الشمس قبل حدوثهما .

والزلازل لاتنقطع أخبارها، والعظيمة منها تحدث فى وجه الأرض أحداثاً فظيعة جداً : فقد زلزلت آسيا الصغرى (مثلا) فى ٢٠ من سبتمبر سنة ١٨٩٩ زلزالا عنيفا ، خربت به مدن وقرى فى بلاد مساحتها ٢٥٠٠ ميل ، وانفجرت من جرائه عيون ثرثارة لاعهد للناس بها . فاغرقت ماحولها من الدواب وبعض الرعاة ، وغاضت أخرى ، وتصدعت مبان شتى ، وتهدمت كنائس ومدارس ومساجد وبيوت كثيرة جداً .

ولعل ماحدث فى سنة ميلاد رسول الله ، كان مما يحدث بين آن وآخر فى السماء أو فى الأرض من الأحداث الطبيعية ، فلا بأس من رجعها اليها ، وهو خير من تكلف جعلها ارهاصاً أو معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) أبواه ومربوه : والده عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصى بن كلاب ، وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف ابن زهرة بن كلاب ، ولم يك لها أخ ولا أخت كما لم يك لعبد الله ولا لآمنة ولد غير رسول الله

موت أبيه : — ولما تم لآمنة من حملها شهران ، توفى عبد الله عن خمس وعشرين سنة ، وكان قد رجع من غزة ضعيفا مع قريش لما رجعوا بتجارتهم ومروا بيثرب (المدينة المنورة) فتخلف عند أخوال أبيه بنى النجار ، ومات ودفن هنالك

وقد كفل رسول الله وهو فى المهد جده عبد المطلب ، فختنه يوم سابعه ، وصنع له مأدبة ، وسماه محمدا ، ودعا رجالا من قريش فحضروا

وطعموا ، فلما فرغوا من الاكل قالوا : ماسميته ؟ فقال : سميته محمداً ، فقالوا : رغبت عن أسماء آبائه ، فقال : أردت أن يكون محموداً فى السماء لله ، وفى الأرض لخلقه .

وقد فرح أبو لهب عم رسول الله بميلاده ، قالت له ثُوَيْبة : أشعرت أنّ آمنة قد ولدت غلاما لأخيك عبد الله ؟ فقال لها اذهبى فأنت حرة

أما المحمدون قبل رسول الله فلا يعرف فى العرب من تسمى بهذا الاسم قبله إلا ثلاثة ، وقد آباؤهم على بعض الملوك ، وكان عنده علم من الكتاب الاول ، فأخبرهم بمبعث نبي فى الحجاز وبقرب زمنه وباسمه الذى هو محمد .

وكان كل واحد منهم قد ترك زوجه حاملا ، فنذر إن وُلد له ولد ذكر أن يسميه محمداً ، طمعاً فى أن يكون هو النبي الذى سيبعث

وهؤلاء المحمدون هم : محمد بن سفيان بن مجاشع التميمى ، جد الفرزدق الأعلى ، ومحمد بن بلال بن أحيحة الأوسى . وكان أحيحة زوج سلمى بنت عمرو النجارية قبل هاشم بن عبد مناف ، ومحمد بن حمران ابن ربيعة الجعفى ، وكان فى عصر امرىء القيس بن حُجْر ، وكان هذا يسميه الشويعر .

ولما تحدث الحزاة والكهان بأن نبياً يبعث من العرب اسمه محمد ، سَمَّى كثير غير هؤلاء أبناءهم بمحمد للغرض نفسه .

(٢) حديث رضاعه وفصاله — وقد التمس لرسول الله المراضع ، فكان مما كتبه الله فى سابق حكمته أن نبيه يكون رضيعا لحليمة السعدية

بنت أبي ذؤيب من سعد بن بكر بن هوازن

روى ابن اسحق وغيره أنها قالت :

قدمت مكة فى نسوة من بنى سعد بن بكر ، نلتمس الرضعاء فى سنة شهباء ، على أتان لى ومعى صبى لنا . . فقدمنا مكة ، فو الله ماعلمت منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه ، إذقيل إنه يتيم من الأب،وذلك أنا كنا إنما نرجو المعروف من أبى الصبى ، فكنا نقول : يتيم ، ماعسى أن تصنع أمه وجده ، فكنا نكرهه لذلك ، فو الله مابقى من صواحبى امرأة الا أخذت رضيعا غيرى ، فلما لم أجد غيره قلت لزوجى (الحرث بن عبدالعزى السعدى ، أدرك الاسلام وأسلم) والله انى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ليس معى رضيع ، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه ، قال : لاعليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ، فذهبت ، ثم أخذته بما هو عليه إلى أن جئت به رحلى ، فاقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب أخوه حتى روى . . فودعت النساء بعضهن بعضا ، وودعت أنا أم النبى ﷺ ، ثم ركبت أتانى وأخذت محمدا بين يدى . . . ثم مشت حتى سبقت دواب الناس الذين كانوا معى ، وصاروا يتعجبون منى . . . ثم قدمنا منازل بنى سعد ، ولاأعلم أرضا من أرض الله أجدب منها ، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به شباعا لبنا ، (كثيرة اللبن) فنحلب ونشرب

وكانت الشيماء أخته من الرضاعة تحضنه وترقصه وتقول :

هـذا أخ لى لم تلده أمى ... وليس من نسل أبى وعمى

فديته من مُخْوِلٍ مُعِمّ ... فأنه اللهم فيما تُنمى

أما التماس الرضاع بالأجر، فلم يكن محمودا عند أكثر نساء العرب حتى جرى المثل : تجوع الحرة ولا تأكل بثديها ؛ وكان عند بعضهن لا بأس به ، بل لقد جرت عادة نساء القبائل التى حول مكة ونواحى الحرم بأنهن يأتينها فى كل عام مرتين ربيعا وخريفا للرضعاء ، يذهبن بهم الى بلادهن حتى تتم الرضاعة .

وأما دفع الأبناء إلى المراضع فكان من عادة نساء قريش لاغراض منها (١) أنهن كن يرين رضاع أولادهن عارا ، لانه قد يدل على الفاقة (٢) أن يتفرغن إلى الازواج ، وربما كان ذلك رجاء كثرة النسل (٣) أن ينشأ الولد فى الاعراب ، فيكون أنجب ، ولسانه أفصح ، كما فى الحديث : أنا أعربكم ، أنا من قريش ، واسترضعت فى بنى سعد بن بكر ، وكانت مشهورة فى العرب بالكمال وتمام الشرف ، وكانت بلادهم معروفة بطيب الهواء وعذوبة الماء

وذكر أن عبدالملك بن مروان كان يقول : أضرّ بناحُب الوليد ، لأن الوليد كان لحانا وكان سليمان فصيحا ، لأن الوليد أقام مع أمه (فى دمشق) وسليمان وغيره من إخوته سكنوا البادية فتعربوا ثم أدبوا فتأدبوا .

قالت حليمه : فلما فَصَلْتُه بعد عامين ، قدمنا به على أمه ، ونحن أحرص شىء على مكثه فينا ، لما نرى من بركته ، فكلمنا أمه فقلنا لو تركتيه عندنا حتى يغلظ ، فانا نخشى عليه وباء مكه ، ولم نزل بها حتى ردّته معنا فرجعنا به .

هذا وقد أجمع أهل السير على حديث شق بطنه وهو عند رابته

ومرضعته مرة ، ثم حصل له بعد ذلك مرات ، وقد حدّث رسول الله أبا ذر الغفارى بعد البعثة بهذا الحديث وقال فى آخره : وكأنى أرى الأمر معاينة

ورجح أهل السير أن هذا لم يك خاصا برسول الله ، بل إنه حصل للانبياء جميعا .

قالوا والحكمة فى شق صدره وهو عند ظئره ، تطهيره عن حالات الصبا حتى يتصف فى سن الصبا بأوصاف الرجولة ، ولذلك نشأ على أكمل الاحوال من العصمة .

قيل : فما باله لم يخلق كاملا مكملا لايحتاج الى عملية جراحية تستأصل بعض مافى بطنه من علقة ، وأجيب بأن هذه العلقة من تكملة الخلق الانسانى ، فلا بد منها لكل كائن حى ، وإخراجها بعد خلقها ، أدل على عظيم الرعاية ومزيد العناية ، من خلقه بدونها ، قالوا ولو خلق بدونها ما أطّلع الخلق على اختصاص الخالق رسوله بهذه العناية ، فاظهرها على يد ملائكته ليتحقق كمال باطنه كما وضح كمال ظاهره .

قالوا : وحكمة تكرارها : الزيادة فى الاكرام والمبالغة فى الاسباغ ليتأهب للمناجاة ، ويستعد لتلقى الوحى فى أكمل الأحوال من التطهير

قالت حليمة : فوالله انه لبعد مقدمنا بشهرين أو ثلاثة مع أخيه من الرضاعة ، لفى بَهْم لنا خلف بيوتنا ، جاء أخوه يشتد ، فقال ذاك أخى القرشى قد جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه وشقا بطنه ، فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه ، فنجده قائما منتقعا لونه ، فاعتنقه أبوه ، وقال أى بنى ماشأنك ؟ قال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض

وشقا بطني ثم استخرجا منه شيئا فطرحاه ، ثم رداه كما كان .

قالت : فرجعناه معنا ، فقال أبوه : ياحليمة ، قد خشيت أن يكون ابنى قد أصيب ، فانطلق بنا نرده إلى أهله قبل أن يظهر به مانتخوف ، قالت : فاحتملناه حتى قدمنا به مكة على أمه ، فقالت ماردكما به ، فقد كنتما حريصين عليه ؟ قنا نخشى عليه الاتلاف والاحداث ، فقالت ماذاك ؟ فاصدقانى شأنكما ، فلم تدعناحتى أخبرناها خبره ..... قالت فدعاه عنكما

وسياق القصة يدل على أنه ﷺ رجع إلى أمه فى الثالثة ، والأكثرون على أنه كان إذ ذاك ابن خمس أو ست .

هذا ولم تره حليمة بعد ماردّته إلى مكة ، إلا مرتين احداهما بعد تزويجه خديجة ، جاءته تشكو اليه السَّنَة ، وان قومها اسنتوا كلهم ، فكلم خديجة فاعطتها عشرين من الغنم وبكرات ؛ والثانية يوم حنين ، على أن التى لقيته يوم حنين أخته الشيماء ، ولها معه حديث يأتى . وكان رسول الله بعد عودته من بلاد بنى سعد ، مع أمه فى كَلاَءة الله وحفظه ، ينبته نباتا حسنا .

موت أمه :- ولما بلغ ﷺ ستا أواكثر ماتت أمه آمنة بالابواء ، وكانت خرجت به إلى أخوال جده بنى عدى بن النجار بالمدينة تُزِيره اياهم ، ومعها أم أيمن بَرَكة الحبشية (كانت لأبيه أولامه ، أسلمت قديما وهاجرت الهجرتين) فنزلت به دار رجل من بنى عدى اسمه التابعة ، فأقامت به عندهم شهرا ، ثم رجعت به إلى مكة ، فلما كانت بالابواء توفيت ، فرجعت به أم أيمن فكانت دايته وحاضنته بعد أمه ،

وكان رسول الله يعظمها ويرعاها ويقول لها أنت أمى بعد أمى ، وكفلَه جده عبد المطلب فضمه اليه ، ورق عليه رقة لم يرقها على وُلده ، وكان يقربه ، ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام ، ويجلس على فراشه من دون أولاده ، وكان يوضع لجده فراش فى ظل الكعبة ، وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج اليه ، لا يجلس عليه أحد منهم ، إجلالا له ، فكان رسول الله يأتى حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبدالمطلب إذا رأى منهم ذلك : دعوا ابنى ، ويمسح على ظهره بيده ويقول : ان لابنى هذا لشأنا .

ولما بلغ رسول الله ﷺ الثامنة ، مات جده عبدالمطلب ، فكفله عمه أبو طالب ، بوصية من عبد المطلب ، فقد أوصى اليه برسول الله وسقاية زمزم ، وأوصى إلى الزّبير بالحكومة وأمر الكعبة ، وقد أنشدوا رجزاً لعبد المطلب يوصى فيه أبا طالب برسول الله وهو :

أوصيك ياعبدمناف بعدى ... بمفرد بعد أبيه فرد
فارقه وهو ضجيع المهد ... فكنت كالأم له فى الوجد
تدنيه من أحشائها والكبد ... فأنت مِن أرْجَى بَنِيّ عندى
لدفع ضيم أو لشد عقد

فكان أبو طالب يحبه حبا شديداً ، لا يحبّ أولاده كذلك ، ولا ينام إلا إلى جنبه ، ويخرج به متى خرج .

وقد قاسمته فى تربية رسول الله امرأته فاطمة بنت أسد بن هاشم أم أولاده جميعا ، ويروى أنها لما ماتت قال رسول الله : اليوم ماتت أمى وكفنها بقميصه ، ونزل قبرها واضطجع فى لحدها

(٣) سفره إلى الشام أول مرة

ولما بلغ رسول الله اثنتى عشرة سنة ، خرج مع عمه أبى طالب إلى الشام ، ذلك أن أبا طالب لما تهيأ للرحيل صَبَّ به رسول الله ، فرقَّ له أبو طالب ، وقال : والله لأخرجن به معى ، ولا يفارقنى ولا أفارقه أبدا ، فخرج به معه حتى بلغ بُصرى ، مدينة حوران ، فرآه بحيرا الراهب ، وكان اليه علم النصرانية ، واسمه جِرْجِيس ، كان نصرانيا من عبد القيس ، وقيل كان حبرا من أحبار يهود تيماء ، وكانوا كثيرا مايمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم ، حتى كان ذلك العام ، فلما نزلوا به قريبا من صومعته ، صنع طعاما ، وأرسل اليهم أن احضروا كلكم صغيركم وكبيركم وعبدكم وحركم ، فقال له رجل منهم : والله يابحيرا إن لك اليوم لشأنا ، ماكنت تصنع بنا هذا وقد كنا نمر بك كثيرا فما شأنك اليوم ؟ قال له بحيرا صدقت ، ولكنكم ضيف ، وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم .

فاجتمعوا إليه ، وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم — لحداثة سنه — فى رحالهم ، وقالوا ماتخلف عن طعامك أحد ينبغى له أن يأتيك الأغلام أحدث القوم سنا ، فقال لاتفعلوا ، ادعوه فليحضر معكم .

فقال رجل من قريش : إن كان لؤما بنا أن يتخلف ابن عبدالله ابن عبد المطلب عن طعام من بيننا ، فقام عمه الحرث بن عبد المطلب فاحتضنه وأجلسه مع القوم ، وجعل بحيرا يسأله عن أشياء من حاله ونومه وهيئته وأموره ، ويخبره ﷺ فيوافق ذلك ماعند بحيرا فى صفته التى عنده ، فلما فرغ أقبل على عمه فقال له : ماهذا الغلام منك؟ قال ابنى

قال ماهو ابنك ، وماينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا ، قال فانه ابن أخى ، قال فما فعل أبوه ؟ قال مات وأمه حبلى ، قال صدقت. فارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه من اليهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ماعرفت ، ليبغنّه شراً ، فانه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرع به إلى بلادك ، فخرج به أبو طالب سريعا حتى أقدمه مكة ، بعد أن فرغ من تجارته بالشام. فما خرج به سفراً بعد ذلك خوفا عليه

ومما سبق نرى أن رسول الله ﷺ شب فى كنف جده، وترعرع فى كفالة عمه ، الذى ظل يحافظ عليه ، والله يكلؤه ، ويحوطه من أمور الجاهلية ، لما يريد به من كرامته ورسالته ، حتى بلغ أن كان رجلا ، أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأكرمهم مخالطة ، وأحسنهم حوارا ، وأعظمهم حلما وأمانة ، وأصدقهم حديثاً ، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال

شهوده حرب الفجار الآخرة

كانت هذه الحرب بين قريش وكنانة كلها ، وبين هوازن ، وإنما هاجها البرّاض بن قيس (أحد بنى ضَمْرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة) بقتله عروة الرَّحّال (أحد بني بكر بن هوازن) فأبت هوازن أن تقتل بعروة البراض ، لأن عروة سيد هوازن ، والبراض خليع من بنى كنانة ، وأرادت ان تقتل به سيداً من قريش

وهذه الحرب كانت قبل مبعث النبي ﷺ بست وعشرين سنة وقد شهدها وهو ابن أربع عشرة سنة ، وقال : كنت أنبل على أعمامى يوم الفجار ، يعنى أناولهم النبل : وفى رواية قال : قد حضرته مع عمومتى

ورميت فيه بأسهم ، وما أحب أنى لم أكن فعلت .

وكان سبب هذه الحرب أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، كان يبعث إلى سوق عكاظ كل عام لطيمة فى جوار رجل شريف من أشراف العرب يجيرها له ، حتى تباع هناك ، ويُشترى له بثمنها من أدم الطائف مايحتاج اليه ، فجهز عِيراً لِلَّطيمة ثم قال من يجيرها؟ فقال البراض : أنا أجيرها على بنى كنانة ، فقال النعمان : ما أريد إلا رجلا يجيرها على أهل نجد وتهامة ، فقال عروة الرحال ، وهو يومئذ رجل هوازن : أَكَلْب خليع يجيرها لك أبيت اللعن ؟ أنا أجيرها لك على أهل الشيحة والقيصومة من نجد وتهامة (الشيحة والقيصومة موضعان بنجد شرقى فيد) ، فقال البراض : أعلى كنانة تجيرها ياعروة ؟ قال : وعلى الناس كلهم ، فدفعها النعمان إلى عروة فخرج بها ، وتبعه البراض ، وعروة لايخشى منه شيئا لأنه كان بين ظَهْرَانَىْ قومه من غطفان ، الى جانب فدك ، الى أرض أُوَارة التى نزلها عروة فشرب وغنته قينته ، ثم قام فنام ، فجاءه البراض فدخل عليه ، فناشده عروة ، وقال كانت منى زَلّة ، وكانت الفَعْلة منى ضَلَّة ؛ فقتله وخرج فاستاق اللطيمة إلى خيبر ، وأَتبَعَهُ رجلان من غطفان وغَنِىّ حتى دخلا خيبر ، فكان البراض أول من لقيهما ، فقال لهما من الرجلان ؟ فقالا من غطفان وغَنىّ ، قال البراض ماشأن غطفان وغني بهذه البلدان ؟ قالا ومن أنت ؟ قال من أهل خيبر ، قالا ألك علم بالبراض ؟ قال دخل علينا طريدا خليعا ، فلم يؤوه أحد بخيبر ، ولا أدخله بيتا ، قالا فأين يكون ؟ قال وهل لكما به طاقة إن دللتكما عليه ؟ قالا نعم ، قال فانزلا فنزلا وعقلا راحلتيهما ،

obeikandl.com

قال فايكما أجرأ عليه ، وأمضى مقدما ، وأحدّ سيفا ؟ قال الغطفانى : أنا ، قال البراض : فانطلق أدلك عليه ، ويحفظ صاحبك راحلتيكما ، ففعل ، فانطلق البراض يمشى بين يدى الغطفانى حتى انتهى إلى خربة فى جانب خيبر خارجة عن البيوت ، فقال البراض : هو فى هذه الخربة واليها يأوى ، ومازال يحتال عليه حتى أخذ منه سيفه فقتله به ، وخبأ السيف خلف الباب ، وعاد الى الغنوىّ يقول : لم أر أجبن من صاحبك ، تركته قائما فى الباب الذى يدخل فيه الرجل ، والرجل نائم ، لايتقدم اليه ولايتأخر عنه ، قال الغنوى ياهفاه ! لو كان أحد ينظر راحلتينا ؟ قال البراض : هما علىّ إن ذهبتا ، فانطلق الغنوى والبراض خلفه ، حتى اذا جاوز الغنوىّ بابَ الخربة ، أخذ البراض ذلك السيف ثم ضربه به حتى قتله ، وأخذ سلاحيهما وراحلتيهما ،

وبلغ قريشا خبر البراض بسوق عكاظ ، فخلص وانجيا ، وأتبعتهم هوازن ، لما بلغهم أن البراض قتل عروة . فأدركوهم وقد دخلوا الحرم ، فنادوهم : يامعشر قريش ، إنا نعاهد الله ألا نبطل دم عروة الرحال أبدا ، ونقتتل به عظيما منكم ، وميعادنا وإياكم هذه الليالى من العام المقبل ، فقال حرب بن أمية لابى سفيان ابنه قل لهم : إن موعدكم قابل فى هذا اليوم ، فكانت بينهم أيام خمسة فى أربع سنين آخرها يوم الحريرة ، وهى حرّة إلى جنب عكاظ ، ثم تداعى الناس إلى السلم على أن يذروا الفضل ويتعاهدوا ويتواثقوا .

روى أن عتبة بن ربيعة — وكان يتيما فى حجر عمه حرب بن أمية ممن به وأشفق من خروجه معه الى ميدان الحرب — خرج فلم يشعروا

به الا وهو بين الصفين على بعيره ينادى يامعشر مضر ، علام تقاتلون؟ فقالت هوازن : ماالذى تدعو اليه ؟ فقال : الصلح ، على أن ندفع اليكم دية قتلاكم ، ونعفو عن دمائنا ، قالوا وكيف ؟ قال . ندفع اليكم رُهُناً منا ، قالوا ومن لنا بهذا ؟ قال : أنا ، قالوا ومن أنت ؟ قال عتبة بن ربيعة بن عبدشمس ، فرضوا ، ورضيت كنانة ، ودفعوا إلى هوازن أربعين رجلا ، فيهم حكيم بن حزام بن خويلد ، فلما رأت عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ، الرهن فى أيديهم ، عفوا عن الدماء واطلقوهم . وعتبة هذا أبو هند بنت عتبة وأخو شيبة بن ربيعة ولهم أخبار تأتى فى الغزوات .

شهودة حلف الفضول

تداعت قبائل من قريش إلى حلف فاجتمعوا له ، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألاّ يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس ، الا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى تُرَدّ عليه مظلمته ، وكان أكرم حلف سمع به وأشرفه فى العرب ، ولا يعلم أحد سبق بنى هاشم به ، حضره رسول الله ﷺ وقد جاوز العشرين ، وقال بعد مابعثه الله : لقد شهدت فى دار عبد الله بن جُدْعان حلفا مايسرنى به حمر النعم ، ولو دُعيت اليه اليوم لأجبت ، يريد لو قال قائل من المظلومين : يا لَحِلْف الفضول لأجَبْته ، ذلك أن الاسلام إنما جاء باقامة الحق ونصرة المظلومين فلا يزيده هذا الحلف الا قوة ، ويؤخذ منه تخصيص أهل هذا الحلف وحدهم بالدعوة وإظهار التعصب إذا خافوا ضيما ، فان الاسلام قد رفع ماكان فى الجاهلية من قولهم يا لفلان عند التحزب والتعصب

إلا ما كان من حلف الفضول ، فحكمه باق ، والدعوة اليه جائزة .

وكان أول من تكلم به ودعا اليه : الزُّبيرُ بن عبد المطلب ، وكان سببه أن رجلا من زُبَيْد قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاصى بن وائل (أبو عمرو بن العاص) ، وكان ذا قدر بمكة وشرف ، فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الزُّبيدى الاحلاف — وهم بنو عبد الدار وبنو مخزوم وبنو جمح وبنو سهم وبنو عدى بن كعب — فأبوا أن يعينوه على العاصى وانتهروه ، فلما رأى الشر ، أوفى عَلى أبى قبيس عند طلوع الشمس ، وقريش فى أنديتهم حول الكعبة فصاح بأعلى صوته .

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائى الدار والنفر

ومحرمٍ أشعث لم يقض عُمْرَتَه ... يا للرِّجال وبين الحِجْر والحَجَر

إن الحرام لمن تمت كرامته ... ولا حرام لثوب الفاجر الغَدِرِ

الحرام ـ الاحترام .

فلما سمعوه قام الزبير فقال : مالهذا مُتْرَك ، فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة ، فى دار عبد الله بن جُدْعان ، فصنع لهم طعاما ، وتحالفوا فى ذى القعدة فى شهر حرام قياما ، فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ، ليكونُنَّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم ، حتى يؤدىَ له حقه ، ما بل بحر صوفة ، ومار ساحِراء وثبير مكانهما ، وعلى التأسى فى المعاش ، ثم مَشَوا الى العاصى ، فانتزعوا منه سِلعة الزُّبَيْدِى فدفعوها اليه ـ وقال الزبير فى ذلك .

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا ... ألاَّ يقيم ببطن مكة ظالم

أمر عليه تعاهدوا وتواثقوا ... فالجار والمعتر فيهم سالم

الجار — المستجير ، المعتر — المعترض للمعروف من غير أن يسأل.

وروى أن رجلا من خثعم قدم مكة معتمراً أو حاجا ومعه بنت له من أضوأ نساء العالم ، فاغتصبها منه نُبَيه بن الحجاج السهمى. فقال من يُعْدِينى على هذا الرجل (يعيننى)؟ فقيل له عليك بحلف الفضول، فوقف عند الكعبة ونادى : ياحلف الفضول ، فاذا هم يُعَنِّقون اليه من كل جانب ، وقد انتضَوْا أسيافهم يقولون: جاءك الغوث فمالك؟ فقص عليهم القصة فذهبوا الى نبيه فأخرجها اليهم.

وكان بين الحسين بن على وبين الوليد بن عتبة بن أبى سفيان (أمير المدينة من قبل معاوية) منازعة فى مال كان بينهما بذى المروة. فكأن الوليد تحامل على الحسين فى حقه لسلطانه ، فقال له الحسين : أحلفُ بالله لتنصفنى من حقى ، أو لآخذنّ سيفى ، ثم لأقومن فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لأدعون بحلف الفضول ، فقال عبد الله ابن الزبير — وهو عند الوليد حين قال له الحسين ما قال — : وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذن سيفى ، ثم لأقومن معه حتى ينصف من حقه أو نموت جميعاً . وبلغت المِسْوَرَ بن مَخْرَمَةَ الزهرى فقال مثل ذلك ، وبلغت عبد الرحمن بن عثمان التيمى ، فقال مثل ذلك. فلما بلغ ذلك الوليدَ ، أنصف الحسين من حقه حتى رضى.

شهوده بناء الكعبة

وضع رسول الله ﷺ الحجر الأسود في موضعه حين اختصمت قريش فيه وحكمته فحكم بما أرضاهم جميعا ، وكان اذ ذاك ابن خمس وثلاثين سنه .

وبيان ذلك أن قريشا هدمت الكعبة ، لسيل أصابهم فهدمها ، أولنار أصابت ثيابها فأحرقتها ، أولانها كانت فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها ، وانما كانت رَضْماً (الرضم صخور عظام يرضم بعضها فوق بعض فى الابنية) ليس فيها مَدَر ، فنقضوها .

وكان أول من ضرب فيها بمعول : الوليد بن المغيرة المخزومى ، وذلك حينما هاب الناس هدمها ، وفَرِقوا من منه ، فقال أنا أبدؤكم فى هدمها ، فأخذ المعول ثم قام وهو يقول : اللهم لم نُرَع (لم تُفزَع الكعبة) اللهم لانريد الا الخير ، ثم هدم وهدم الناس معه ، حتى انتهى الهدم إلى الاساس أساس ابرهيم ، ثم ان القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة ، وكانت كل قبيلة تلى طائفة منها ، فكانت بنو عبد مناف تلى الربع . وسائر ولد قصى وبنو تيم الربع ، وبنو سهم وجمح وعدى وعامر بن فهر الربع ، وبنو مخزوم وقبائل من قريش الربع ، وهو الركن اليمانى ، وحضر رسول الله ﷺ بناءها وكان ينقل الحجارة من أجياد معهم

فلما بلغ البناء موضع الحَجَر وأرادوا أن يضعوه ، اختصموا فيه وقالت كل قبيلة نحن نتولى رفعه الى موضعه ، ومكث النزاع على هذا بينهم أربع ليال أو خمس ، وأعدُّوا للقتال ، ثم اجتمعوا فى المسجد الحرام

وتشاوروا وتناصفوا ، وقال أبو أمية بن المغيرة المخزومى (أخو الوليد أبى خالد) وهو إذ ذاك أسن قريش وأحد أجوادها : يامعشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ، فأقبل رسول الله ﷺ ، فلما رأوه مقبلا ، قالوا قد رضينا بحكم محمد بن عبد الله ، وكانت قريش تسميه — قبل أن ينزل عليه الوحى — الأمين ، وكانوا يتحاكمون اليه فى الجاهلية ، لأنه عرف بأنه لايدارى ولايمارى (المدارأة ، مدافعة الحق ، والمداراة ، المدافعة بالتى هى أحسن) فأخبروه ، فحكم بينهم أن يجعلوه فى ثوب ، ثم يرفعه من كل قبيلة رجل ، وأمر بثوب أو بسط رداءه ، ثم وضع الحجر فى وسطه وقال : لتاخذ كل قبيلة بجانب من الرداء ، ثم ارفعوه جميعاً ، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه أخذه رسول الله ووضعه بموضعه الذى هو به ، وصاح صائح يامعشر قريش : أقد رضيتم أن يضع هذا الركن — وهو شرفكم — غلام يتيم دون ذوى أسنانكم ؟ فكاد يثير شرا بينهم ولكنهم سكتوا واشتغلوا بالبناء حتى رفعوا الكعبة ثمانية عشر ذراعا وسقفوها ولم يكن لها قبل ذلك سقف ؛ قيل جاءوا بخشب السقف من سفينة القتها الريح بجدة فتحطمت ، وكانت لقيصر الروم ، يحمل له فيها الرخام والخشب والحديد ، سَرَّحها مع باقوم الرومى الى الكنيسة التى حرقها الفرس للحبشان ، فخرج اليها الوليد بن المغيرة (ابو خالد) فى نفر من قريش فاشتروا خشبها وجاءوا بباقوم وقالوا لها ابنها على بناء الكنائس ، وكان فى مكة مولى لسعيد بن العاص يسمى باقوم القبطى فاشترك مع باقوم الرومى فى بنائها وسقفها

رَعْيَتُه الغنم

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : مابعث الله نبيا إلا راعى غنم ، فقال له أصحابه : وأنت يارسول الله ؟ قال : وأنا ، رعيتها لأهل مكة بالقراريط يعنى ، كل شاة بقيراط ، وقيل أن القراريط ناحية من نواحى مكة ، وليست قراريط الفضة والذهب

قال أهل السير فى بيان حكمة الله فى هذا الموضوع : إن الرجل إذا استرعى الغنم التى هى أضعف البهائم ، سكن قلبُهُ اللطف والرأفة فاذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق كان قد هُذّب من الحدّة الطبعية والظلم الغرزى ، فيكون فى أعدل الأحوال .

سفره الى الشام مرة أخرى

ثم خرج ﷺ إلى الشام مرة ثانية — وسبب ذلك أن أبا طالب قال : يابن أخى ، أنا رجل لامال لى ، وقد اشتد الزمان علينا ، وألحّتْ سنون منكرة ، وليس لنا مادة ولاتجارة ، وهذه عِير قومك قدحضر خروجها إلى الشام ، وخديجة تبعث رجالا من قومك يتجرون فى مالها ويصيبون منافع ، فلو جئتها لفضلتك على غيرك ، لما بلغها عنك من طهارتك ، وإن كنت أكره أن تأتى الشام ، وأخاف عليك من يهود ، ولكن لانجد من ذلك بُدًّا ، فقال ﷺ : لعلها ترسل إلىّ فى ذلك ، فقال أبو طالب : إنى أخاف أن تُوَلّىَ غيرك فتطلبَ أمراً مُدْبِراً ، فبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له ، كما بلغها من قبل صدق حديثه ، وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ، فقالت : ما علمتُ أنه يريد هذا ، وأرسلت اليه وقالت : دعانى إلى البعث اليك مابلغنى من كذا وكذا ،

وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك ، فذكر ذلك لعمه ، فقال إن هذا لرزق ساقه الله اليك

وكانت خديجة بنت خويلد هذه تاجرة ذات شرف ومال كثير ، وتجارة تبعث بها الى الشام فتكون عيرها كعامة قريش ، وكانت تستأجر الرجال وتدفع اليهم المال مضاربة ، وكانت قريش قوما تجاراً ، ومن لم يكن منهم تاجراً فليس عندهم بشيء . فلما خرجت عيرهم إلى الشام خرج فيها رسول الله ﷺ فى مال خديجة ومعه ميسرة غلامها حتى وردت العير سوق بُصرى ، فنزلوا عند صومعة بحيرا ، ونزل رسول الله تحت ظل شجرة فى السوق قريباً من الصومعة ، وكان فيها راهب من رهبان الشام يسمى نَسْطورا ، فاطلع الى ميسرة — وكان يعرفه — فقال ياميسرة ، من هذا الذى تحت الشجرة ؟ فقال : رجل من أهل الحَرَم ، فبشَّرَ بنبوته — ثم حضر رسول الله سوق بُصرى فباع سلعته التى خرج بها واشترى ، وكان بينه وبين رجل اختلاف فى سلعة ، فقال الرجل : احلِفْ باللات والعزى ، فقال : ما حلفتُ بهما قط ، فقال له الرجل : القول قولك ، وقال لميسرة — وخلا به — هذا نبى ، والذى نفسى بيده لهو النبى الذى تجده أحبَارنا منعوتا فى كتبهم .

ثم انصرف أهل العير جميعا ، وكان ميسرة يعى كل ما يشاهده من أحوال رسول الله ، وما يراه من تكريم الله إياه ، وعنايته به . ومزيد رعايته فى حله وترحاله ، وبيعه وشرائه — فلما دخل مكة أخبر خديجة بكل ما رأى ، ثم دخل عليها رسول الله ﷺ فأخبرها بما ربحوا ،

فأضعفت له ما كانت سمّته ؛ وكان ذلك كله مع ماجاءها عنه من أخبار أخرى ، سبب عرضها نفسها عليه بلا وساطة أو بها على ماسترى .

زواجه خديجة

روى أن خديجة قالت لرسول الله ﷺ : يابن عمى ، إنى قد قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك فى قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك

وروى عن نفيسة بنت منية قالت : كانت خديجة امرأة حازمة جلدة شريفة مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير ، وهى أوسط قريش نسبا وأعظمهم شرفا وأكثرهم مالا ، وكل قومها كان حريصا على نكاحها لو قدر على ذلك ، وقد طلبوها وبذلوا لها الأموال ، فأرسلتنى دسيسا إلى محمد بعد أن رجع فى عيرها من الشام ، فقلتُ يامحمد ، مايمنعك أن تتزوج ؟ فقال : مابيدى ما أتزوج به ، قلت فان كفيتُك ذلك ، ودُعيتَ إلى المال والجمال والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟ قال فمن هى ؟ قلتُ خديجة ، قال وكيف لى بذلك ؟ قلتُ علىّ ، فقال افعلى ، فذهبت فأخبرتها ، فأرسلت اليه أن ائت لساعة كذا .فذكر ذلك لأعمامه .

وروى أيضا أن عمار بن ياسر قال : أنا أعلم الناس بتزويج رسول الله خديجة بنت خويلد ، كنت صديقا له ، فانا لنمشى يوما بين الصفا والمروة ، إذ بخديجة بنت خويلد وأختها هالة ، فامارأت رسول الله جاءتنى هالة فقالت ياعمار ، أما لصاحبك حاجة فى خديجة ؟ قلت والله ماأدرى ، فرجعت فذكرت ذلك له فقال : ارجع فواضعْها (وَافِقْها) وواعدها يوما نأتيها فيه . ففعلتُ ، فلما كان ذلك اليوم أرسلت إلى عمها عمرو

ابن أسد ، وجاء رسول الله في نفر من أعمامه تقدمهم أبو طالب فخطب فقال :

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل ، وضئضىء (معدن) معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا حَضَنَة بيته وسواس حرمه ، وجعل لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا ، وجعلنا الحكام على الناس — ثم أن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله ، مَن لا يوزن برجل إلا رجح به ، شرفا ونبلا وفضلا وعقلا ، فان كان في المال قل ، فان المال ظل زائل ، وأمر حائل (لا بقاء له لتحوله) ، وعارية مسترجعة ، ومحمد ممن عرفتم قرابته ، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها ما آجله وعاجله كذا وكذا (كان اثنتي عشرة أوقية ونشا ، والنش نصف أوقية ، وكانت الاواقي والنش من ذهب) ويروى : وله في خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم ، وخطر جليل جسيم ، فلما أتم الخطبة تكلم ورقة بن نوفل بن أسد فقال :

الحمد الذي جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عددت ، فنحن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله ، لا تنكر العشيرة فضلكم ، ولا يردّ أحد من الناس فخركم وشرفكم ، وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم ، فاشهدوا عليّ معاشر قريش أني قد زوّجت خديجة بنت خويلد ، من محمد بن عبد الله ، وذكر المهر .

فقال أبو طالب : قد أحببت أن يَشْرَكَكَ عمها ، فقال عمها (عمرو بن أسد) اشهدوا يا معاشر قريش اني قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد ، وشهد على ذلك صناديد قريش ، وهذا يدل على

أن أباها خويلدلم يحضر ، إذ كان قد مات قبل ذلك بمدة ، وهو الأصح

ولما تم الأمر ذهب رسول الله ليخرج ، فقالت له الى أين يامحمد ؟ ، اذهبْ وانحر جزورا أو جزورين ، وأطعِم الناس ، ففعل ، ودخل فقالَ معها ، فأقر الله عينه ، وفرح أبو طالب فرحا شديدا ، وحمد الله حمدا كثيرا

وكانت خديجة قبل رسول الله تحت أبي هالة التميمى ، وقد ولدت له ولدا ذكرا اسمه هند ، الصحابي الذي شهد بدرا ، وكان الحسن بن على يقول حَدّثني خالى ويريده ، لانه أخو فاطمة لامها ، وكان لهند أخ من خديجة اسمه هالة بن أبي هاله وله صحبة ـ ولما مات أبو هالة تزوجها عتيق بن عابد المخزومى ، فولدت له بنتا اسمها هند ، وولدا اسمه عبدمناف بن عتيق

هذا ـ وهى خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصى ابن كلاب ، أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ ، لم يتزوج قبلها ولا عليها حتى ماتت ، بعد أن أقامت معه أربعا وعشرين سنة ، وكانت تسمى فى الجاهلية والاسلام ، الطاهرة ، وقد ولدت له أولاده جميعا ، إلا ابراهيم فكان من مارية القبطية ،

وسَبقُ خديجة وتأثيرها فى أول الاسلام وموازرتها ونصرتها ، وقيامها لله ، بمالها ونفسها ، لم يَشْرَكها فيه أحد ، لاعائشة ولاغيرها من أمهات المؤمنين

وبعد فالغرض من سرد هـذه الفصول أن نبين أن رسول الله منذ ولد إلى أن بعثه الله رحمة للعالمين ، نشأ بين ظهرانَىْ قومه ، فربّوه

على عاداتهم فى تربيب أبنائهم حتى أدرك ، ثم شب وهو فيهم يزاول مايزاولونه من حرف ، ويأكل مما يأكلون منه ، ويشرب مما يشربون ، ويمشى فى الأسواق كما يمشون ، ثم اكتهل فكان على بصيرة من أمرهم كله ، سواء أكان ذلك فى أحوال الحرب ، أم فى أوقات السلم ، فاذا بعثه الله فيهم ، كان على بينة من أخلاقهم وميولهم ونزعاتهم وعاداتهم ، وهذا كله من اقوى مايساعد على نشر دعوته والاستجابة اليه ، ويحقق مايشير اليه الله تعالى فى قوله : (هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين)

بيت الرسول

قد اخطأ النَّجمَ مانالت أبوَّته من سؤدد باذخ فى مظهر سَنِم

الغرض من عقد هذا الفصل ، الاشارة إلى أن البيت الذى كان منه المصطفى ﷺ ، بيت رفيع العماد ، عظيم الشرف ، كريم المحتد ، أصله ثابت وفرعه فى السماء ، مشهور بالفضل ، مذكور بالمكارم ، فليس من العجب حينئذ أن يختار الله تعالى منه رسوله محمدا الذى ارسله رحمة للعالمين .

ذلك البيت هو بيت بنى هاشم بن عبد مناف بن قصى ، الذى اجتمع له من شرف المحل وتمام المجد وكمال السيادة مالم يجتمع لغيره من البيوتات العربية ، على عظمتها وقوة شكيمتها وشرف أصولها وفروعها ، وذلك أن قصيا الجد الاعلى للنبى ، قد اجتمع فى يده من وظائف الرياسة والسيادة الرفادة والسقاية والحجابة واللواء والندوة والقيادة . وقد وَرَّثها بنيه ،

وله مكارم أخرى سنذكر شيئا منها فى موضعه :

وللبيت الشريف كالنسب العريق معان قد عُنى العرب بها فى الجاهلية والاسلام عناية ليس بعدها عناية ، وقد أحتفظوا بالبيوت والانساب وحفظوها لاغراض شتى منها : ماطبعوا عليه من الميل الى صلة الرحم والتعاطف والتواصل ، ومنها طلب الكفاءة فى النسب والصهر ، ومنها بيان العزة بالمكاثرة عند التماس المناصرة اذا دعا داعى الحرب ، ومنها المفاخرة والمباهاة بمآثر الآباء والجدود ، وما أورثوا بينهم وأحفادهم من مجد وسؤدد ، كما ترى فى قول جرير وهو مضرى يفاخر الفرزدق وهو ربعى :

أن الذى حرم المكارم تغلبا ... جعل النبوة والخلافة فينا

مضر أبى وأبو الملوك جميعهم ... فاعلم فليس أبوكمُ كأبينا

اذا تمهد هذا فنقول .

ان رسول الله ﷺ نخبة بنى هاشم ، وسلالة قريش وصميمها وأشرف العرب وأعزهم نفرا ، من قِبَل أبيه ومن قبل أمه ، كما أنه من أهل مكة : أكرم بلاد الله على الله وعلى عباده ، وينتهى نسبه إلى عدنان

نسب كأن عليه من شمس الضحى ... نورا ومن فلق الصباح عمودا

وليس عند المؤرخين ريب فى أن عدنان من ولد اسماعيل بن ابراهيم الخليل صلوات الله عليهما ، فهو أبو العرب العدنانية .

ولو أننا استوعبنا أجداد الرسول وذرياتهم الى عدنان ، لكنا بذلك قد استقصينا قبائل العدنانيين عامة ؛ ولو أننا جارينا القول المأثور

عن ابن عباس رضى الله عنه وهو : أن رسول الله كان واسط النسب فى قريش ، لم يك حى من أحياء قريش إلا ولدوه . ثم سردنا بطون قريش وأفخاذها ، لطال الكلام كثيرا .

ولو أننا اتبعنا ماورد أيضا عن رسول الله وهو : إن الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل ، واصطفى من ولد اسماعيل كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم ، ثم فصلنا ذلك تفصيلا وبسطناه بسطا . لاتسع المجال جدا .

ولكن ذلك لا يمنعنا أن ندون هذا المقدار اليسير من تاريخ بعض أجداده ومن كان له أثر من اخوتهم وأبنائهم أو حفدتهم ، فى سلطة عادلة ، أو مفخرة شاملة ، أو إحياء فضيلة ، أو بث مكرمة ، ليكون ماندكره من ذلك اشارة إلى محاسن البيت النبوى ، سواء أكانت فى الجاهلية أم فى الاسلام . واليك هذا الموجز :

قد أجمع العلماء على أن رسول الله ﷺ انما انتسب إلى عدنان ولم يتجاوزه ، ونهى أن ينسب إلى من بعد عدنان من الأجداد ، ومن عدنان كانت أجداد النبى الى عبد المطلب بن هاشم . وقد اخترنا منهم ومن ذوى قرابتهم البيوت التالية :

(١) مضر بن نزار بن معد بن عدنان — وكانوا أهل الكثرة والغلب بالحجاز من سائر العدنانية ، وكانت لهم رياسة بمكة ، ويجمعهم فخذان عظيمان هما ، خِندِف وقيس عيلان ، فمن قيس بنو هوازن الأولى كان منهم بنو سعد بن بكر ، آل حليمة ظئر النبى ﷺ ، ومن قيس عدوان ، آل عامر بن الظَّرِب ، حكيم العرب بعكاظ . ومن خندف أكثم بن صيفى

وقَطَرِيّ بن الفُجاءة والاغلب بن سالم أبو الأغالبة ملوك إفريقية فى عصر بنى العباس قبل الفواطم، ومن بطون خندف بنو مدركة بن الياس ابن مضر، وهم هذيل وكنانة واسد، فمن هذيل صاهلة آل عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ، وأخوه عتبة، والمسعودى المؤرخ، ومن أسد زينب بنت جحش أم المؤمنين وإخوتها.

(٢) كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر، ومنهم: قريش وهم بنو النضر بن كنانة، وإنما انتسبوا الى فهر بن مالك بن النضر، لان عقب النضر منحصر فيه، لم يعقب من بنى النضر غيره.

ومن كنانة على غير عمود النسب: بنو عبد مناة، ومنهم: البراض ابن قيس قاتل عروة الرحال، ومن بني بكر بن عبد مناة: بنو الدُّئِل رهط أبي الاسود تلميذ على بن أبى طالب فى النحو، ويقال فى النسبة الى هذا الفخذ دؤلى، مهموز مفتوح؛ ومن بنى بكر أيضا بنو ضَمْرة الأولى منهم بنو غِفَار، رهط أبى ذر الغفارى؛ ومن مرة بن عبد مناة بنو مُدْلِج آل سُراقة بن مالك، وهم قافة العرب وأعلمهم بالزجر والقيافة.

ونعود الى فهر بن مالك وهو قريش، لأنه كان يَقْرِشُ عن خَلّة كل ذى خلة فيسدها بفضله، فمن كان محتاجا أغناه، ومن كان عاريا كساه، ومن كان طريداً آواه، ومن كان خائفا حماه، ومن كان ضالا هداه؛ وكل من لم يلده فهر فليس بقرشى.

ومن فهرٍ غالب على عمود النسب، وعلى غيره: بنو الحارث آل

أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح ، أمين هذه الأمة ، وعقبة بن نافع فاتح إفريقية ومؤسس القيروان ؛ وبنو محارب آل الخطاب بن مرداس سيد الظواهر فى الجاهلية ، وابنه ضرار بن الخطاب من فرسان الاسلام وشعرائه ، والضحاك بن قيس صاحب مرج راهط الذى قاتل فيه مروان بن الحكم حين بويع بالخلافه الاموية .

وعلى عمود النسب من غالب بن فهر : لؤى بن غالب ، وهو تصغير اللأى (بقر الوحش) . ومن قبائل لؤى على غير عمود النسب : بنو عامر بن لؤى ، ومنهم عبد الله بن أم مكتوم الأعمى الذى نزل فيه (عبس وتولى) ، وهو مؤذن رسول الله بالمدينة ، ومنهم عبد الله بن سعد بن أبي السرح أمير المسلمين فى فتح أفريقية أيام عثمان ، ووالى مصر بعد عمرو بن العاص . وكان ابن أبي سرح يكتب الى رسول الله ثم رجع الى مكة مرتدا ثم تاب وحسنت حاله ، ضمنه عثمان بن عفان يوم الفتح وكان رسول الله قد أراق دمه .

وعلى عمود النسب من لؤى : كعب بن لؤى ، ومنه على غير عمود النسب بطنان : بنو عدى آل عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد بن عمرو ، أحد العشرة ؛ وبنو هُصيص ، وهم فخذان : جُمَح وسهم .

فمن سهم : العاص بن وائل ، وعمرو بن العاص ، ونُبَيْه ومنبه ابنا الحجاج ، قتلا يوم بدر كافرين ؛ ومن جمح : عثمان بن مظعون ، الذى هاجر الهجرتين وشهد بدراً ، وصفوان بن أميه بن خلف ، الذى كناه رسول الله (أبا وهب)

وعلى عمود النسب مرة بن كعب ، ومنه على غير عمود النسب

بطنان : بنو تيم . وبنو يقَظة ، فمن تيم : عبد الله بن جُدْعان سيد قريش في الجاهلية ، وصاحب الدار التي عقد فيها حلف الفضول ، وأبو بكر الصديق صاحب رسول الله ﷺ ، وأنيسه في الغار ، وصهره وخليفته رضي الله عنه وأرضاه ، وكذلك طلحة بن عبيد الله الصحابي الذي قتل في واقعة الجمل .

ومن يقظة : بنو مخزوم ، ومنهم أم سلمة أم المؤمنين ، بنت أبي أمية بن المغيرة ، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد زوجها قبل رسول الله ، وخالد بن الوليد بن المغيرة ، سيف الله ، وقد انقرض ولده ؛ ومن بني مخزوم : سعيد بن المسيب تابعي ، وأبوه المسيب من أهل بيعة الرضوان ، وأبو جهل بن هشام بن المغيرة ، قتل يوم بدر كافراً ، وابنه عكرمة ، وكان صحابيا ، وفاطمة بنت عُمَر بن مخزوم ، جدة الرسول أم أبيه عبد الله ، والأرقم بن أبي الأرقم صاحب الدار التي كان يأوي اليها النبي وأصحابه سرا قبل أن يفشو الاسلام .

وعلى عمود النسب من مرة : كلاب بن مرة : ومنه على غير عمود النسب بطن واحد ، وهم زهْرَة ، آل السيدة آمنة أم الرسول ﷺ ، وآل كل من عبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن الأرقم بن عبد يغوث ، وهو ابن أخي السيدة آمنة

وعلى عمود النسب : قُصَيّ ، واسمه زيد ، ويدعى مُجَمِّعاً ، لأنه لما أخرج خزاعة من مكة ورأى أنه صريح ولد اسماعيل عليه السلام ، وأنه أحق من خزاعة بالبيت الحرام وبنى دار الندوة ، وجعل بابها إلى البيت الحرام ، وتجمعت قريش بمكة سمي مجمعا ، لأنه جمعهم ولم

يجعل معهم غيرهم

وكانت البطون التى اجتمعت اثنى عشر بطنا وهم : بنو الحرث ، وبنو محارب ، وبنو عامر ، وبنو عدى ، وبنو سهم ، وبنو جمح ، وبنو تيم ، وبنو مخزوم ، وبنو زُهره ، وبنو أسد ، وبنو عبد الدار ، وبنو عبد مناف

وقطع مكة أرباعا بينهم ، فأنزل كل بطن منهم بمنزله الذى صبحهم به الاسلام ، وأنزل فريقا منهم البطحاء ، فسموا بقريش البطاح ، وفريقا منهم ظواهرها ، فسموا بقريش الظواهر ، وولى أمر الكعبة وأقام بأم القرى سيداً مطاعا ، فكان قصى أول رجل من بنى كنانة أصاب ملكا ، وكان بيده وظائف تتسابق القبائل وتتنافس لحيازة الواحدة منها ، فتشرف بها ويعلو شأنها ؛ فما ظنك بقصى وقد اجتمعت كلها فى يده ، وهى : السقاية والرفادة والندوة (البرلمان) والحجابة واللواء والقيادة .

وقد تيمنت قريش برأى قصى ، فصرفوا مشورتهم اليه فى قليل أمورهم وكثيرها ، واتخذوا دار الندوة فى استشاراتهم ، فكانت مجتمع الملأ من قريش فى مشاوراتهم ومعاقدهم ، ثم تصدى لاطعام الحاج وسقايته ، لما رأى أنهم ضيف الله ، وزوار بيته ؛ وفرض على قريش خرجا يؤدونه اليه ، زيادة على ما كانوا يردفونه به ، وكان أمره فى قومه كالدين المتبع .

ثم هلك قصى ، وقام بأمره فى قومه بنوه من بعده ، وأقاموا على ذلك مدة ، وسلطان مكة لهم ، وأمر قريش جميعا ، وكان لما أسنّ قصى ،

أوصى لابنه عبدالدار بما كان بيده من تلك الوظائف ، يجبر له بذلك مانقصه من شرف اخيه عبدمناف ،الذى شرف فى حياة أبيه قصى ،وذهب شرفه كل مذهب ، ولما ماتا أراد بنو عبد مناف حيازة هذه الوظائف ، وأخذها من بنى عمهم،وقام بامرهم عبد شمس أسن أخوته ، فكادت تقع الحرب بين الفريقين ، لولا أنهم اصطلحوا على أن تكون الرفادة والسقاية لهاشم بن عبد مناف ، يرثها عنه بنوه ، ومنهم عبدالمطلب بن هاشم ، ويختص بنو عبد الدار بالحجابة واللواء ، فرضى الفريقان وتحاجز الناس .

عود — وانما سمى قصى بذلك ، لأن أمه تقصت به معزوجها ربيعة ابن جذام القضاعى الى أرض عذرة — ومنه على غير عمود النسب بطنان: بنو أسد بن عبد العزى بن قصى ، وبنو عبد الدار ؛ فمن بنى أسد خديجة بنت خويلد بن أسد أم المؤمنين ، والزبير بن العوام بن خويلد حوارىّ رسول الله وأحد العشرة ، وحكيم بن حزام بن خويلد ، عاش ستين سنة فى الاسلام ،

ومن بنى عبد الدار : عثمان بن أبى طلحة ، الذى دفع اليه رسول الله يوم فتح مكة مفتاح الكعبة ، ولم يزل إلى الآن فى بنى شيبة بن أبى طلحة .

وفى بنى عبد الدار هاشم بن عبد مناف بن عبدالدار ، وهو بالضرورة غير هاشم بن عبدمناف بن قصى . جد رسول الله ؛

ولقصى على عمود النسب : عبدمناف ، وهو صاحب الشوكة فى قريش ، وكان يسمى قمر البطحاء لحسنه وجماله ، وله على غير عمود

النسب ثلاثة بطون ؛

بنو المطلب ، ومنهم عبيدة بن الحرث بن المطلب البدرى ، وشافع جد الامام الشافعى ، وقيس بن مخرمة بن نوفل الصحابى ، وابنه عبدالله ابن قيس .

وبنو نوفل ، ومنهم جبير بن مطعم ، وكان ممن قام فى أمر صحيفة قريش ، وكان رسول الله يشكر له ذلك .

وبنو عبد شمس ، ومنهم بنو أمية الاصغر ، يقال لولده العَبلاَت ، لان أم أمية هذا ، عَبْلَة ، من البراجم من تميم ، ومنهم هند بنت عتبه أم معاوية وزوج أبى سفيان ؛ وبنو أمية الاكبر بن عبدشمس ، ومنهم ذو النورين عثمان بن عفان بن العاص بن أمية ، أحد العشرة ، وزوج بنتى الرسول ﷺ ، ومروان بن الحكم وأبوسفيان وأبناؤه وبنته أم حبيبة أم المؤمنين ؛ ومن بنى عبدشمس : أبو العاص بن الربيع ، زوج زينب بنت رسول الله ، وكان النبى يثنى عليه فى صهره خيرا . وعقبة بن ابى معيط بن أمية ، وقد قتله رسول الله ببدر صبرا ، وابنه الوليد صحابى .

ولعبد مناف على عمود النسب : هاشم وهو صاحب البيت الذى ينسب اليه رسول الله ﷺ ؛ وكان لكل واحد من هؤلاء الاربعة بنى عبدمناف شأن عظيم فى الأحوال الاقتصادية ، بين الحجاز وبين البلاد الأخرى ، وكذلك فى الاحوال الحربية :

(١) فكان لهاشم الحلف الذى عقده من هرقل ، لتختلف تجارتهم إلى الشام آمنة ، وكان يرحل صيفا إلى غزة وبهامات .

(٢) وكان للمطلب بن عبد مناف عقد حلف النجاشى ليتجروا

فى بلاده . وقد هلك بردمان من اليمن .

(٣) وكان لنوفل الحلف من كسرى للاتجار فى العراق .

(٤) وكان لعبد شمس قيادة الجيش ، وقد ورثها عنه ابنه أمية ، فحرب بن أمية ، فأبو سفيان بن حرب ؛ وقد قاد قريشا يوم بدر عتبة ابن ربيعة ، إذ كان أكبر من أبى سفيان ، بل أكبر رجال هذا البيت فى ذلك الحين ؛ وكان أبو سفيان غائبا فى عير قريش التى من أجلها وقعت الواقعة ؛ وفى أحد والأحزاب قاد قريشا أبو سفيان

هذا وقد انقرض ولد هاشم من الذكور إلا مَن كان على عمود النسب وهو عبد المطلب ؛ وكان لهاشم : أسد بن هاشم ، ومنه فاطمة بنت أسد ، أم على بن أبى طالب ، وهى أول هاشمية تزوجت هاشميا فولدت له

ثم نعود إلى ذكر هاشم وابنه عبد المطلب ، فنقول :

ان هاشما كان قد قدم المدينة فتزوج سلمى بنت عمرو ، أحد بنى النجار ، وكان قد خرج فى عِير لقريش فيها تجارات ، فلما نزلوا المدينة فباعوا واشتروا فى سوقها ، نظروا إلى امرأة على موضع مشرف من السوق ، وهى تأمر بما يشترى ويباع لها ، فسأل عنها : أيّم هى أم ذات زوج ؟ فقيل له أيم ، وكانت لشرفها فى قومها لا تنكح الرجال حتى يشترطوا لها أنّ أمرَها بيدها ، إذا كرهت رجلا فارقته ، فخطبها هاشم ، فعرفت شرفه ونسبه ، فزوجته نفسها ، ودخل بها وصنع طعاما ، ودعا مَن هنالك من أصحاب العير ، وكانوا أربعين رجلا من قريش ، فيهم رجال من بنى عبد مناف ومخزوم وسهم ، وأقام أياما مع سلمى ، فعلقت منه

بعبد المطلب ؛ ثم خرج بأصحابه إلى الشام حتى بلغ غزة فاشتكى ومات هنالك ، فدفنوه وعادوا بتركته إلى ابنه عبد المطلب ؛ وكانت أمه حين ولدته وجدت برأسه شعرات بيضا ؛ فسمته شيبة .

وكان هاشم حين خرج قد أوصى إلى أخيه المطلب بن عبد مناف ، وكان بنوه وبنو هاشم يدا واحدة لم يفترقوا فى جاهلية ولا اسلام ، كما كان بنو نوفل وبنو عبد شمس يدا واحدة ؛ فظل المطلب يقوم بأمر مكة حتى كبر شيبة ، وبلغ المطلبَ مكانُه ، فذهب إلى المدينة وعاد به إلى مكة فى قصة عن ثابت أبى حسان بن ثابت وهى :

قيل قدم ثابت بن المنذر مكة معتمرا ، فلقى المطلب ــ وكان له خليلا ــ فقال له لو رأيت ابن أخيك شيبة فينا ، لرأيت جمالا وهيبة وشرفا .... فقال المطلب : لا أمسى حتى أخرج اليه فاقدم به ، فقال ثابت : ما أرى سلمى تدفعه اليك ولا أخواله ، هم أضنّ به من ذلك ، وما عليك أن تدعه فيكون فى أخواله حتى يكون هو الذى يقدم عليك إلى ماهنا راغبا فيك؟ فقال المطلب : يا أبا أوس ، ما كنت لأدعه هنالك ويترك مآثر قومه ، وسِطَتُه ونسبه وشرفه فى قومه ماقد علمت ؛ ثم خرج المطلب فورد المدينة ، فنزل فى ناحية وجعل يسأل عن شيبة حتى وجده يرمى فى فتيان من أخواله ، فلما رآه عرف شبه أبيه فيه ، ففاضت عيناه وضمه اليه وكساه حلة يمانية ، وعرفه بنفسه فأرسلت سلمى الى المطلب فدعته إلى النزول عليها ، فقال شأنى أخف من ذلك . ما أريد أن أحل عقدةً حتى أقبض ابن أخى وألحقه ببلده وقومه ، فقالت : لست بمرسلته معك ، وغلظت عليه ، فقال المطلب لا تفعلي ، فانى غير منصرف حتى

أخرج به معى ، ابن أخى قد بلغ ، وهو غريب فى غير قومه ، ونحن أهل بيتِ شرفٍ فى قومنا ، والمقام ببلده خير من المقام ههنا ، وهو ابنك حيث كان ؛ فلما رأته غير منصرف حتى يخرج به ، استنظرته ثلاثة أيام ، فتحول المطلب اليهم فنزل عندهم ، فأقام ثلاثا ، ثم احتمله وانطلق به ، فلما دخل مكة ، قالت قريش : هذا عبد المطلب ، فقال المطلب : ويحكم هذا شيبة : ابن أخى هاشم .

ولما حضر رحيل المطلب إلى اليمن قال لشيبة أنت يابن أخى أولى بموضع أبيك ، فقم بأمر مكة ، فقام مقام المطلب وشرف ، وأطعم الطعام ، وأقام الرفادة والسقاية للحاج على أحسن ماكان قومه يقيمونه بمكة من قبله . فأقرت له قريش بالشرف والسيادة عليها ، وكانت تسميه الفضل لسماحته ، وقد تزوج النساء فولدن له الأولاد وكان منهم عبد الله أبو المصطفى وأحد عشر من اخوته وهم عمومة الرسول ﷺ .

وفى أيام عبد المطلب حدثت حادثة الفيل ، وخلاصتها أن ابرهة عامل النجاشى على اليمن ، أراد أن يهدم الكعبة لسبب — فيما يظهر لى — سياسى ، ذلك أنه رأى وفود العرب وغيرهم تتأهب كل عام إلى هذا البيت لتحجه ، وهذا بطبيعته اجتماع عربى قد يؤدى إلى اتفاق كلمة العرب وتضامنهم ضد كل من يغير على ناحية من نواحى جزيرتهم ، فأراد أن يصرف حاج العرب إلى كنيسة (القليس) التى بناها ؛ فيمتنع هذا الاجتماع السنوى للعرب بمكة ، ثم قصد مكة لهدم بيت الله ، وأرسل خيلا فأغارت على ابل لعبد المطلب ، فذهب اليه فردها عليه ، وعاد فأمر قومه بالجلاء عن مكة إلى الجبال والشعاب ، وقال ان للبيت ربا يحميه ،

أما أبرهة، فقد بعث إلى عبد المطلب يقول: ما جئت لحربكم، إنما جئت لهدم هذا البيت، فقال عبد المطلب: ونحن لا نريد حربه، ومالنا بذلك من طاقة، فلما كان الجيش على ثلثي فرسخ من مكة، أرسل الله عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، فخرجوا هاربين يتساقطون بكل طريق، حتى هلكوا، وحمى الله حرمه، وأعز آل بيت نبيه، حتى دانت لهم العرب، واعتقدوا شرفهم وفضلهم، وقالوا: أهل الله قاتل الله عنهم وكفاهم مئونة عدوهم.

حفر زمزم — ولما فرّج الله عن عبد المطلب، ورجع أبرهة خائبا، رأى رؤيا، استدل منها على موضع بئر زمزم، وكانت جرهم لما أخرجت من مكة كرها: قد عمدت الى نفائس فجعلتها فى زمزم وطمتها، وبالغت فى ذلك، فلم تزل مجهولة إلى أن استدل عليها عبد المطلب بامارات، فعمد إلى حفرها، فاعترضت قريش دون ذلك، وحالوا بينه وبين ما أراد، وكان معه ولده الحرث وحده إذ ذاك، ولم يكن له ولد سواه، فنذر لئن جاء له عشرة بنين، وصاروا له أعوانا، ليذبحن أحدهم قربانا لله عند الكعبة، ثم قام ليحفر، فمنعوه، فلما رأوا أنه غير تارك، خلوا بينه وبين الحفر وكفوا عنه، فلم يحفر إلا يسيرا حتى بدا له طيّ البئر، فكبّر، فلما تمادى به الحفر، وجد تلك النفائس التى دفنتها جرهم، فقالت قريش: انا معك فى هذا شرك، فامتنع وحلى باب الكعبة بما وجد من الذهب، وأتم حفر زمزم، وأقام سقايتها للحاج، فكانت له فخرا وعزا على قريش وعلى سائر العرب، وعفّت على سائر آبار كانت قبلها، وانصرف الناس اليها، لمكانها من البيت الحرام، وافتخر بها

بنو عبد مناف على قريش وعلى غيرهم .

ذبح أحد بنيه ـ ولما تكامل بنو عبدالمطلب عشرة ، وذلك بعد حفر زمزم بثلاثين سنة ، وقر الله عينه بهم ، تذكر نذره ، فجمع أولاده وقص القصة ودعاهم إلى الوفاء ، فقالوا انا نطيعك ، وأقرع بينهم فخرجت القرعة على عبد الله أبي رسول الله ، فتحير فى شأنه ، ولكنه عاد فأخذه وأراد أن ينحره ، فقامت اليه سادة قريش تقول له : لئن فعلت هذا لايزال الرجل يأتى بابنه فيذبحه وتكون سنّة ، وقال المغيرة المخزومى ـ وكان عبدالله ابن اخت القوم ، فقال والله لاتذبحه أبدا ، حتى تُعذِر فيه إلى ربك ، فان كان فداؤه بأموالنا فديناه ، وقالوا له انطلق الى فلانة الكاهنة فالفَوْها بخيبر ، فقالت قربوه وعشرة من الابل وأجيلوا القداح ، فان خرجت على الابل فذاك ، والا فزيدوا فى الابل ، حتى تخرج عليها القداح ، وانحروها حينئذ فهى الفدية عنه ، وقد رضى الحكم ، ففعلوا ، وبلغت الابل مائة ، فنحرها عبدالمطلب وتركها لايصد عنها انسانا ـ وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال : أنا ابن الذبيحين ، فاما له كان يشير إلى هذه القصة وقصة اسماعيل عليهما السلام .

وهذه القصة تروى من وجوه شتى ، ولعلها موضوعة على سبيل المثل ، لتدل على أن عبدالمطلب كان ممن يوفون بالنذر ، وكان الله قد أعطاه من الشرف مالم يعط أحداً ، فسقاه زمزم ، وحكمته قريش فى أموالها ، وأطعم فى المحل حتى الطير فى وُكناتها ، والوحش فى شعاب الجبل ، ورفض عبادة الأوثان ووحد الله جل اسمه . ووفى بالنذر وسن سنناً جاء القرآن بأكثرها ، والسنةُ من رسول الله بها ، ومنها ألا تنكح ذات محرم ،

وألا تؤتى البيوت من ظهورها ، وقطع يد السارق . ونهى عن قتل الموءودة ، وحرم الخمر والزنا والمباهلة (الملاعنة) وألاّ يطوف بالبيت عريان ، ومنها إضافة الضيف ، وألاّ ينفقوا إذا حجوا الا من طيب أموالهم ، ومنها تعظيم الاشهر الحرم ، وكان لكل ولد من بنيه شرف وذكر ، وفضل وقدر ومجد ، وحج أكثم ابن صيفى فرآهم فقال من كلام « إذا أحب الله أن ينشىء دولة أنبت لها مثل هؤلاء ، هؤلاء غراس الله لاغراس الرجال »

عمومته : وأعمامه ﷺ تسعة أو أكثر ، أصغرهم عبد الله ، وأكبرهم الحرث ، ومن بنيه : أبو سفيان بن الحرث ، ونوفل وربيعة ، وكلهم أسلموا ؛ ومنهم أبوطالب ، وأولاده: طالب وعقيل وجعفر وعلى

ومن بنى على : سيدآ شباب أهل الجنة : الحسن والحسين ، أمهما فاطمة الزهراء بنت رسول الله ، وأخوهما لأبيهما محمد بن الحنفية ، وقد صار لكل منهم بيت ، وقد تجمع هذه البيوت كلمة الطالبيين أو العلويين الاشراف ، وقد يجمع فريقا من هذه البيوت كلمة الفواطم أو الفاطميين ، ومفاخر الحسنيين والحسينيين وبيوتهم ورجالاتهم ، كل ذلك أكثر من أن يحصى .

ومنهم الزّبير (بفتح أوله أو بصيغة التصغير) وابنه عبدالله الذى كان يقول له رسول الله : ابن عمى وحبى ؛ ومنهم أسد الله وأسد رسوله سيد الشهداء حمزة ، وكان أخا رسول الله من الرضاع ، أرضعتهما ثويبة ؛ ومنهم العباس وكان له كأبيه عشرة أولاد منهم الفضل وعبد الله بن العباس ، وكان أحد الاجواد ، أمهم أم الفضل لبابة الكبرى الهلالية ،

أخت أم المؤمنين ميمونة ؛ والبيت والشرف من بنى العباس فى بيت عبد الله بن العباس ؛

ومنهم أبو لهب ، وقد أسلم من بنيه يوم الفتح اثنان ،

والرسول أربع عمات : أم حكيم ، وكانت عند كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف ، فولدت له عامرا.

وعاتكه ، وكانت تحت أبى أمية بن المغيرة المخزومى ، فولدت له عبد الله وزهيرا أخرى أم سلمة أم المؤمنين لأبيها وابنى عم أبى جهل.

وبرّة ، وكانت عند أبى رُهم العامرى ، فولدت له أبا سبرة ؛ ثم خلف عليها عبد الأسد المخزومى ، فولدت له أبا سلمة ، الذى كانت عنده أم سلمة قبل رسول الله ؛ وأبو سلمة أول من هاجر الى الحبشة هو وزوجه أم سلمة

وأميمة ، وكانت تحت جحش بن رئاب من بنى أسد بن خزيمة ، وهى أم عبد الله وعبيد الله وأحمد وزينب وأم حبيبة وحمنة ؛ وقد أسلم الجميع وهاجر ذكرانهم الى الحبشة ، وتزوج رسول الله من البنات زينب

صفية ، وكانت أخيرا تحت العوام بن خويلد ، أخو السيدة خديجة ، فولدت له الزبير وغيره ، وقد أسلم الزبير وهو ابن ثمان ، ولم يتخلف عن رسول الله فى غزوة غزاها ، وهو أول من سل سيفا فى سبيل الله .

وبعد فهل رأيت مما مضى أن رسول الله ﷺ كان من بيت مجد ، جم الفضائل عظيم الآثار ، واسع الثروة من الرجال الأفذاذ الذين شادوا صرحه ورفعوا أعلامه منذ أزمان ؛ ثم رسموا لأعقابهم من بعدهم مناهج السيادة والعزة والسلطان ، إلى أن وضح نور الله من أفقهم ،

وسرى خبر السماء الى بيوتهم ، واختلفت الملائكة إلى أحيائهم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

أخلاق الرسول

كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلُقا ، كان خُلقه القرآن ، يرضى برضاه ، ويسخط بسَخَطه .

وقد بيّن علماء الاخلاق أن صفات الجلال والكمال فى البشر نوعان نوع ضرورى اقتضته الجِبلّة ، ونوع مكتسب ، وهو ماليس فى أصل الخلقة ، فيحصّله المرء تحصيلا بالمجاهدة والرياضة والتعلم ، ومن الاخلاق ماقد يكون مزيجا من النوعين ، وعلماء الاخلاق وعلم النفس يُجمعون على أن الخلق حال للنفس تصدر عنها الأفعال من غير فكر ولا روية ، ويكادون يجمعون على امكان تغيير الخلق بالمران والرياضة ، ولكنه يكون صناعيا لاطبيعيا ، إذ ليس التكحل فى العينين كالكحل ، فالفطرى أقوى وأثبت ، وتغييره أو ازالته أبطأ وأصعب ، وليس للمرء اختيار فيه ، وانما هو فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لاتبديل لخلق الله ، سواء أكانت حسنة أم غيرها ، والثانية مذمومة ، والأولى هى التى اتفق جميع العقلاء على تفضيل صاحبها ، وتعظيم المتصف ولو بالواحد منها ، فضلا عما فوقه

وقد أثنى الشارع فى كل عصر عليها ، وأمر بها ، وجعل السعادة الدائمة للمتحلى بها .. وَعْد الله لايخلف الله وَعْده ـ ووصَفَ بعضها بأنها أجزاء من النبوة ، وهى التى تسمى بالخُلُق الحَسَن ، وهى ذاك الجود الالهى ، والخصوصية الربانية ، التى فطر الله عليها انبياءه ورسله .

(ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) ، (ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين) (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات) (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده)

وأشار اليها رسول الله ﷺ فيما روى عنه إذ قال : لما نشأت ، بُغِّضت الىَّ الأوثان ، وبُغِّض الىَّ الشعر ، ولم أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله الا مرتين ، فعصمنى الله منهما ، ثم لم أعد ، وهكذا تظل الفطرة السليمة تزكو ، فتنمو معها الاخلاق الكريمة ، حتى تبلغ فى النبى ذروتها ، فيصطفيه الله حينئذ ، ليكون وسيلة فيما بينه وبين خلقه ، وليكون قدوة فيما يقول ويفعل ، رجاء أن يتخلقوا باخلاقه ويَرُوضوا أنفسهم ويجاهدوها جهادا ، حتى يسموبهم الى الفضيلة ، فيتجافوا عما طبعت عليه النفوس البشرية من الميول المهلكة أو الرذيلة ، وهذا هو المكتسب من الاخلاق ؛ وقد يوجد من الناس من يكون مفطورا على شيء من أخلاق الأنبياء دون جميعها ، وهؤلاء بطبيعة فطرتهم يسهل عليهم أكتساب بقيتها بعناية من الله أيضا ، كما تشاهد ذلك فى بعض الأطفال الذين ينزعون منذ نعومة أظفارهم ، الى الصدق أو الاقدام أو السماحة أو الشجاعة ، كما نجد منهم من يتوجه بطبيعته الى ضدها ، فبالرياضة والمران يعتدل منحرف الاخلاق ، ويُستجلَب المعدوم منها وكل ميسر لما خلق له .

وقد قال بعض العلماء أن الخلق الحسن جبلّة وغريزة وفطرة ، وعليه قول رسول الله : كل الخلال يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب .

ولكن الجمهور على أن الاخلاق حسنة أو سيئة كلها فطرية ، وإن كانت تتغير .

والاخلاق الفاضلة لاتدخل تحت حصر ، وكل واحد منها على درجات ، وأساسها فى الانسان العقل ، الذى تنبعث عنه المعرفة والعلم ، فيتفرع عنهما ثقوب الرأى ، وجودة الفطنة ، وصدق الظن ، والنظر للعواقب ، ومجاهدة الشهوة ، وحسن السياسة والتدبير ، واقتناء الفضائل وتجنب الرذائل ، وهذه كلها أوصاف توافرت فى نبينا ﷺ ، فهى دليل رجحان عقله ، واتساع دائرة علمه ومعرفته ، من غير مدارسة ولا مطالعة ، ولاجلوس الى معلم ، وانما هى فطرة الله الذى أحسن كل شىء خلقه (وعلمك مالم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما)

أما بقية الاخلاق الكريمة الطاهرة الفاضلة فان الذى يقرأ سيرته يستنبط مالا يدخل تحت حصر منها .

فالحلم عند القدرة ، والصبر على احتمال المكاره ، من أخص صفاته وأخلاقه ، وما خُيّر بين أمرين قط ، إلا اختار أيسرهما ، مالم يكن إثما ، فان كان إثما كان أبعد الناس منه ، وما انتقم لنفسه ، الا أن تنتهك حرمة الله ، فينتقم لله بها ، وما أجمل ماكان يدعو الله به كثيرا وهو : اللهم اغفر لقومى فانهم لايعلمون ، دون (رب لاتذر على الأرض من الكافرين دَيّارا) كما قال نوح عليه السلام ، مع أن قوم رسول الله كثيرا ما آذوه وجهلوا عليه ، ألا يؤخذ من دعائه هذا ميله إلى العفو عنهم والشفقة عليهم ، والشفاعة لهم ، والاعتذار عنهم لمولاه بأنهم لايعلمون ؟ أليس هذا منتهى الكرم والفضل ؟ حقا لقد كان ﷺ

أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضا ، كما أنه كان فى أخلاق أخرى كالجود والكرم والسخاء لا يوازى ولا يبارى ، وكذلك فى النجدة والشجاعة ، والحياء والاغضاء ، وحسن العشرة ، وبسط الخُلُق ، والشفقة والرحمة والرأفة على جميع الخلق ، ولو كانوا من أعدائه ، وكذلك فى صلة الرحم والوفاء بالعهد ، والتواضع ، على علو منصبه ورفعة رتبته ، والعدل والامانة والعفة وصدق اللهجة ، وطول الصمت والتؤدة والزهد فى الدنيا وطاعة الله والخوف منه ، وغير ذلك مما يتسع مجال سرده ، ولو كان البحر مدادا لنقد البحر قبل أن نستوعبه

وليس عجيبا أن يكون رسول الله على هذه الاخلاق قبل أن ينبّأ ويُنزل الله عليه الكتاب والحكمة ، ويهديه صراطا مستقيما ، ويقص عليه أحسن القصص ، ويذكره بأخبار السابقين ممن اتبعوا رضوان الله فنعموا بالسعادة ، ومن كرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ، ولقد وصفه قومه قبل النبوة بالأمين ، كما علمت فيما مضى ، ثم أثنى عليه مولاه بعد ذلك بقوله (وانك لعلى خلق عظيم) مؤكدا ذلك بجميع أساليب التوكيد .

والذى ينبغى أن تعلمه أن رسول الله كان من كل فضيلة فى وسطها المحمود ، لا فى أحد طرفيها المذمومين ، فالشجاعة وسط بين التهور والجُبن ، والكرم وسط بين السَّرَف والبخل وهكذا

لا يقال : قد نشأ النبى ﷺ بين أتراب من نبت الجاهلية ، وأولياء من عَبَدَة الأوهام ، فكان حريا أن تنطبع نفسه بما يرى ويسمع ، من أول نشوئه الى كهولته ، وأن يتأثر عقله بالبيئة التى من حوله ، فكيف

كان على هذه الدرجة من سمو الاخلاق .

والجواب ما علمت ، من أن الانبياء قد فطرهم الله على الأخلاق الفاضلة ، فهى فيهم خلقية ، لا عن تقليد ولا محاكاة ولا تعلم ، ورسول الله بنى من هؤلاء ، جرى الأمر فيه على غير السَّنن المألوف ، من تأثير البيئة ، فعاجلته طهارة العقيدة ، كما بادر اليه حسن الخليقة ، وكان كلما تقدمت به السن ، زادت فيه الرغبة عما كان عليه قومه مما لا يتفق وما طبع عليه من مكارم الاخلاق ، ومحاسن الصفات ، وقد حاطه الله بعنايته ، واختصه من بين بنى قومه بالعقل الراجح ، الذى عصمه مما وقعوا فيه ؛ فاكتهل كاملا وهم ناقصون ، سلما وهم مشاغبون ، صحيح الاعتقاد وهم واهمون ، مطبوعا على الخير وهم شريرون ؛ مؤمنا بيوم الحساب وهم بلقاء ربهم كافرون ؛ على صراط مستقيم ؛ وهم فى ضلال مبين ، (أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا اهواءهم؟) تلك آثار عناية الله برسوله ، والله أعلم حيث يجعل رسالته

وعليه فلم يك رسول الله ملَكا ، بل كان بشرا كاملا مكملا . بلغ فى المكارم أعلى ذراها ووصل إلى منتهاها . وقد يعد المرء فاضلا بخلق واحد فاضل يقتنيه ؛ فما بالك بمن جعل الله الفضائل كلها فطرة فيه ، لقد كان المثل الأعلى فى كل فضيلة ، فجدير به أن يؤهل لزعامة الدنيا ، ويوكل بمصالح الخلق ؛ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .